حول
حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى



حول

حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله

تأليف

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

دار الفرقان

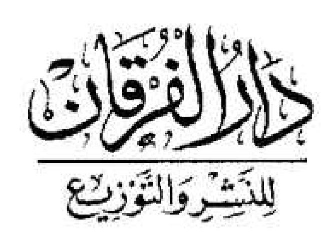
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



٠٢ شارع الرياضات، بلوزداد - الجزائر
جوال : ١٠ ٥٨ ٩٦ ٥٥٦ (٠) ٢١٣ ٠٠
هاتف : ٩٤ ١٣ ٦٧ ٢١ (٠) ٢١٣ ٠٠
dar.alfurquan@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمدَ لله نَحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أمّا بعدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هَدْيُ مُحَمّد ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

وبعدُ:

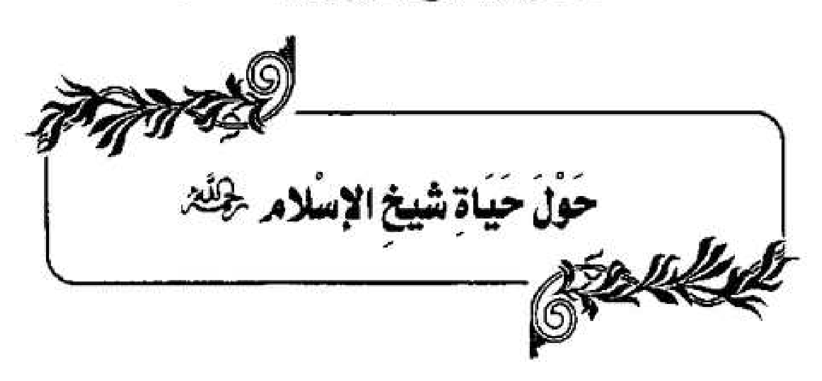
فهذه سطورٌ حولَ حياةِ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لا تكادُ تتعرَّضُ لمنهجِهِ وإنتاجِهِ – فلذلك مكانٌ غيرَ هذا المكان، باستيعاب ينافي هذا الاقتضابَ – هذه سطورٌ تَعرِضُ للشيخ رحمه الله من حيثُ هو إنسانٌ مسلمٌ قبل أن يكون «عالِمًا»، و«إمامًا»، و«شيخًا للإسلام».

هذه سطورٌ تُريك كيف يَتحوَّل الإنسانُ المسلمُ إلى فكرة تكاد تشتعلُ من كثرة ما تتوهَّجُ، وكيف يُصبحُ المرءُ المؤمنُ صروةً حيَّةً ناطِقَةً لكل قول يقولُهُ ولفظٍ يَلْفظُه.

هنا: اشتغل الشيخ بالعلم من فجر حياته إلى مغرب شمسها، **وهنا**: صَفحُهُ عمن ظلمه مع قدرته عليه وتمكنه منه، **وهنا**: نظره إلى محَنه على أنها منن من الله منَّ بها عليه، **وهنا**: جهاده بالسَّيف بعد جهاده باللسان والقلم، **وهنا**: رفقه ورحمته، **وهنا**: بِرُّهُ ومَودَّتُهُ، لكلِّ مَن صادَقَهُ، أو رافَقَهُ، أو تَلَمَّذَ عليه، أو خالَفَهُ، أو اتَّصَلَ به من قريبٍ أو بعيدٍ.

وهنا: القبولُ الأرضيُّ للعالِمِ الرَّبَّانيِّ، إذا أَخْلصَ لله كما ينبغي الإخلاصُ، وقد تَبدَّى هذا القبولُ الأرضيُ في محبَّةِ النَّاس للشَّيخ حَيّاً ومَيّتاً، كما قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «**قولُوا لأهلِ البِدَع: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَوْمُ الجَنائِزِ**».

*****



حَوْلَ حَيَاةِ شيخِ الإسْلامِ رحمه الله

هو الشيخُ أحمدُ تقيُّ الدين أبو العباسِ، بن الشيخِ شهابِ الدين عبد الحليم، بن الشيخ عبد السلام مجْدِ الدين أبي البركاتِ، بن عبد الله، بن تَيْمِيَّةَ.

وُلِدَ رحمه الله بِحرَّانَ، يوم الاثنين عشر- وقيل: ثاني عشر- رَبِيْعَ الأولِ، سنة إحدى وستين وستمائةٍ من بعدِ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ.

وبَقِيَ «بحرَّانَ» إلى أن بَلَغَ سبعَ سنين، ثُمَّ هَاجَرَ بِهِ أبوهُ وبإخوتِهِ، إلى دمشقَ؛ فِراراً من زَحْفِ التَّتارِ وجُورِهم.

فأمَّا أبوه: فهو شيخُ شهابُ الدِّين، عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبد الله بن تيمية، قَرَأَ المذهبَ الحنبليَّ على أبيه حتَّى أتقنَهُ، ودَرَّسَ وأفْتى وصنَّف، وكان إماماً محقِّقاً كثيرَ الفنُونِ، متواضِعاً، حسَنَ الأخلاقِ، جَوَاداً من حَسَنَاتِ العَصرِ، ومن أنْجُمِ الهُدى، وإنَّما اختفى - كما يقولُ الإمامُ الذَّهَبِيُّ - من نُورِ القَمرِ، يقصدُ: أباه عبدَ السَّلامِ، وضوءِ الشَّمسِ، يُقصَدُ: ابنَهُ أحمدَ، رحمهم الله تعالى جميعاً.

وقد بَاشَرَ الشَّيخُ عبدُ الحليمِ مَشْيَخَةَ دَارِ الحديث السُّكَّرِيَّة بدمشق، وكان له كرسيٌّ بالجامعِ يَتكلَّمُ عليه أيامُ الجُمَعِ منْ حِفْظِهِ.

وأمَّا جَدُّهُ: فهو الشيخُ مَجْدُ الدينِ، أبو البركاتِ، عبد السَّلام بن عبد الله بن تيميَّة الحرَّاني، الفقيهُ الحنبليُّ، الإمامُ المقريءُ، المحدِّثُ، المُفسر، الأصوليُّ، النَّحويُّ، أحدُ الحُفَّاظِ الأعلامِ.

قال عَنْهُ حفِيدُهُ – شيخُ الإسلامِ أحمدُ -: **كانَ جَدُّنَا عَجَباً في حِفْظِ الأحاديثِ وسَرْدِهَا، وحِفْظِ مذاهبِ النَّاسِ، بلا كُلْفَةٍ.**

وقال عنه الشيخُ جمالُ الدِّينِ ابن مالك[1] -أحدُ معاصريه -:

أُلِينَ للشيخِ المجدِ الفقهُ كما أُلِينَ لِداودَ الحديدُ.

وكان الشيخُ المجدُ معدومَ النظيرِ في زمانِهِ، رأساً في الفقه وأصولِهِ، بارعاً في الحديث وما فيه، له اليدُ الطُّوْلَى في معرفةِ القراءاتِ والتفسير، صَنَّفَ التصانيفَ، واشتهر اسمُهُ وبَعُدَ صِيْتُهُ، وكان فَرْدَ زمَانِهِ في معرفةِ المذهبِ الحنبليِّ، مفرطَ الذَّكاء، متينَ الديانةِ، كبيرَ الشَّأنِ.

وقد اختلَفَ العُلَمَاءُ في عِلَّةِ تسمية الأسرة بـ«ابن تيمية» فقيل: «إنَّ جَدَّهُ محمَّداً، بن الخضرِ، حَجَ على دَرْبِ تَيْمَاءَ، فرأى هناك طفلةً اسمها تَيْمِيَّة، ثمَّ رجعَ فوجدَ امرأتَهُ ولدت بنتاً فسمَّاها تَيْمِيَّة، وقيل: إنَّ جَدَّهُ محمداً كانت أمُّهُ واعظةً وكان اسْمُها تَيْمِيَّة، فَنُسِبَتَ الأسرةُ إليها، وعُرِفَت بها»[2].

وأمَّا جَدَّتُهُ لأبيه: فهي بَدْرَةُ بنتُ فخر الدين أبي عبد الله محمد بن الخضر، وتكنى أمّ البدرِ، كانت تروي وتحدِّثُ بالإجازةِ عن ضياءِ الدّين بن الخريف.

وعمُّ جَدِّه عبدِ السَّلام: هو الإمامُ فخرُ الدّين أبو عبد الله محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية، الفقيهُ الحنبليُّ، المقرِيءُ، الواعظُ، شيخُ حَرَّانَ، وخَطيبُهَا،

---

(١) هوَ الإمامُ جمالُ الدِّين بنُ مالك الطائي، ولِدَ بمدينة (جَيَّانَ) بالأندلس سنة ٦٠٠ هـ ثم انتقل إلى دمشق ونشأ بها، وقد انصرف إلى العلوم العربية فأتقنها، وكان بحراً في النحو والصرف، إليه المنتهى في اللغة، إماماً في القراءات، وأشهر مؤلفاته: الكافية الشافية في النحو، والخلاصة وهي ألفية النحو المشهورة، والتسهيل، ولامية الأفعال، وتفي بدمشق سنة ٦٧٢ هـ.

(٢) ابن تيمية، حياته وعصره. محمد أبو زهرة. ص ١٧.

رَحَلَ إلى بغدادَ فتفقَّه بها وسَمعَ الحديثَ، لازَمَ ابن الجوزيِّ، وسَمِعَ منه كثيرًا من مصنَّفاتِه، ثمَّ أخَذَ في التفسيرِ فَصنَّفَ التفسيرَ الكبيرَ في أكثرَ من ثلاثين مجلَّدًا[1].

أسرةُ شيخِ الإسلامِ – إذن- أسرة عريقة في العلمِ، ضاربةُ الجذورِ فيه، فلمَّا هاجرت من «حَرَّانَ» إلى «دمشقَ» خوفًا من زَحْفِ التَّتارِ وجَوْرِهِم، كان أثمن مَتَاعِهَا الكتب، ولم يكن الطريقُ خاليًا من الأعداءِ، ولم يكن مُعَبَّدًا، فَلاقَت الأسرةُ في نَقْلِ الكتبِ ما لاقت، وكاد العدوُّ يدركُهم في الطريقِ، إذ توقفت عَجَلاتُ المركبةِ عن السَّيرِ، لولا أنَّهم استعانوا بالله تعالى فأخذ بأيديهم ونجَّاهم من القوم الظالمين.

واستقرَّت الأسرةُ بدمشق، وتولَّى الشيخُ عبد الحليم - أبو شيخ الإسلام – مشيخةَ الحديثِ السُّكَّرية بها، وفيها كان سكنُهُ، وفيها تربَّى ولدُهُ تقيُّ الدّين، الإمامُ.

وكان أبوه يُلقي دروسَه من حفظِهِ، من غير استعانةٍ بقرطاسٍ ولا كتابٍ؛ لقُوَّةِ ذاكرتِهِ، وكذلك كان الشيخُ مجدُ الدِّين جدُّ شيخ الإسلام من قُوَّةِ الذاكرةِ بحيث علمتَ قبْلُ، فلا عَجَبَ أن نرى شيخَ الإسلام رحمه الله يبلغُ من ذلك مَبْلغًا تحتارُ فيه العقولُ، والفضلُ بيدِ الله يُؤتيه مَنْ يشاءُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

واتَّجه الغلامُ النَّاشِئُ أوَّلَ ما اتَّجه إلى القرآنِ فحفظَهُ، ثمَّ لم يَنْسَهُ بَعْدُ – وكان قلَّما نَسيَ شيئًا حَفِظَه، بل كان إلى آخر عمرِهِ إذا أرادَ الاستشهادَ بآيات الكتاب العزيز فكأنَّما ينظُر في مصحفٍ منشورٍ بين يديه، بل أعجبُ من هذا كثيراً، فإن استحضارَ الآياتِ لمواطِنِهَا في الاستشهادِ أبلغُ من النَّظَرِ في المُصحف، يَعْثُرُ النَّاظِرُ فيه على شاهِدِهِ أو لا يَعْثُرُ.

---

(١) الصارم المسلول . . مقدمة محمد محي الدين عبد الحميد. ص٩ .

«ثمَّ اشتغلَ بحفظِ الحديثِ والفقهِ واللغةِ، وبرعَ في النَّحْوِ براعَةً خاصَّةً، حتَّى إنَّه ليتأمَّلُ «كتاب» سيبويه، ويدرسُهُ دراسةً فاحصةً ناقدةً، فيخالف بعضَ ما فيه معتمدًا على ما دَرَسَ في غيرِه، فلم يكن من المتهجِّمين من غير بيِّنةٍ، ولا كان مندفعًا في القول من غير حُجَّةٍ وسلطانٍ مُبينٍ»(1).

«ولم يزل من صغرِهِ مستغرقَ الأوقاتِ في الجِدِّ والاجتهادِ، وكان قد خَتَمَ القرآن صغيرًا، ثمَّ اشتغلَ بحفظِ الحديثِ والفقهِ والعربيةِ حتى بَرَعَ في ذلك، مع ملازمةِ الذِّكْرِ، وسَماعِ الأحاديثِ والآثارِ، ولقد سَمِعَ غيرَ كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصَّحيحة العاليةِ، أمَّا دواوينُ الإسلام الكبارُ، كمسنَدِ الإمامِ أحمد، وصحيح البخاريِّ، وصحيح مسلمٍ، وجامعِ الترمذيِّ، وسُنن أبي داود السجستانيِّ، والنَّسائي، وابن ماجه، والدّارقطني، فإنَّهُ سَمِعَ كُلًّا منها مرَّاتٍ عديدةٍ.

وأوَّل كتابٍ حَفِظَهُ في الحديث: الجمعُ بين الصحيحين للإمامِ الحميديِّ، وسَمِعَ من مشايخَ كابنِ عبدِ الدَّائمِ المقدسيِّ وطبقتِهِ، وطَلَبَ بنفسِهِ قراءةً وسماعًا من خَلْقٍ كثيرٍ، وقرأ الكتبَ الكبارَ، ولازمَ السَّماعَ، واشتغَلَ بالعلوم.

قالَ ابن عبد الهادي بن قدامة: وشيوخُهُ الذين سَمِعَ منهم أكثرُ من مائتي شيخٍ، وسَمِعَ مُسْنَدَ الإمام أحمد مَرَّاتٍ، وسَمِعَ الكتبَ الكبارَ والأجزاءَ، ومن مسموعاتِهِ معجمُ الطبرانيِّ الكبيرُ، وعُنِيَ بالحديثِ، وقَرَأَ ونَسَخَ وانتقى وتعلَّمَ الخطَّ والحسابَ في الكُتَّاب، وحَفِظَ القرآن، وأقبلَ على الفقهِ، وقرأ في العربيةِ، وبَرَعَ في النَّحوِ، وأقبلَ على التفسيرِ إقبالًا كُليًّا حتى حَازَ فيه

(1) ابن تيمية، حياته وعصره. محمد أبو زهرة. ص٢٣.

قَصَبَ السبق، وأحكمَ أصولَ الفقهِ وغيرَ ذلكَ، وهذا كلُّه وهو بَعدُ ابنُ بضع عشر سنة[1].

ودَرَسَ الفقهَ الحنبليَّ، مع تَتَبعٍ لسيرِ الإمام أحمد، وكان شيخُ الإسلام يُجِلُّ الإمامَ أحمد إجلالًا خاصًا، ويُشيدُ بمواقفِهِ ويُعجَبُ بمناقِبِه.

«وما أن جاوز الشيخُ العشرين من عمرِهِ حتَّى تُوفِّيَ أبوه، وتولَّى هو التدريسَ بعد وفاةِ أبيه بسنَةٍ، فَجلسَ مجلسَهُ، وحلَّ محلَّه، وهو في الثانيةِ والعشرين من عمره، فجَلَسَ نظيرًا لأئمةِ الحديثِ الممتازين كابن دقيق العيد وغيره من أئمة ذلك العصر، والذين كانوا يدَّرِسُون في تلك المدارس، وفي الجامع الكبيرِ بدمشق»[2].

قال عنه الحافظُ الذهبيُّ – أحدُ تلاميذِهِ الكبار – : نَشَأ الشيخُ تقيُّ الدّين في تَصَوُّنٍ تامٍّ، وعفافٍ وتَألُّهٍ، وتعبُّدٍ، واقتصادٍ في المَلْبَسِ والمأكلِ، وكان يحضرُ المدارسَ والمحافل في صِغَرِهِ، ويُنَاظِرُ ويُفحِمُ الكبارَ، ويأتي بما يَتَحَيَّرُ منه أعيانُ البلدِ في العلمِ، فأفتى وله تسعَ عشرةَ سنةً، بل أقلّ، وشَرَعَ في الجمعِ والتأليفِ من ذلك الوقتِ، وأكبَّ على الاشتغالِ، وماتَ والدُهُ وكان من كبارِ الحنابلةِ وأئمتِهم، فدَرَّسَ بعده بوظائِفِهِ، وله إحدى وعشرون سنةً، واشتهر أمرُهُ، وبَعُدَ صِيتُهُ في العالم.

وأخذَ في تفسيرِ الكتابِ العزيز أيامَ الجُمَعِ على كرسيٍّ من حفظِهِ فكان يُوردُ المجلسَ ولا يتلعثمُ، وكان يُوردُ الدَّرْسَ بتُؤدةٍ وصوتٍ جهوريٍّ فصيحٍ، وكان آيةً في الذكاءِ وسرعةِ الإدراكِ، رأسًا في معرفةِ الكتابِ والسنَّةِ والاختلافِ، بحرًا في النقلياتِ، وهو في زمانِهِ فريدُ عصرِهِ، علمًا

---

(١) غاية الأماني. جـ٢، ص١٥٥.

(٢) ابن تيمية، حياته وعصره. ص٢٩.

وزهدًا وشجاعةً وسخاءً وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكرِ، وكثرةَ تصانيف، وقد قرأ وحَصَّل وبَرَعَ في الحديثِ والفقهِ، وتأهَّلَ للتدريس والفتوى، وهو ابن سبعَ عشرةَ سنةً.

وتقدَّم في علمِ التفسيرِ والأصولِ، وجميع علومِ الإسلام أصولِها وفروعِهَا، ودِقِّهَا وجِلِّهَا، فإن ذُكِرَ التفسيرُ فهو حاملُ لوائِهِ، وإن عُدَّ الفقهاءُ فهو مجتهدهم المطلقُ، وإن حَضَرَ الحفاظُ نَطَقَ وخرسوا، وسَرَدَ وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سُمِّيَ المتكلمون فهو فرْدُهُم وإليه مرجعهم.

وكان الشيخُ قويَّ التوكلِ، دائمَ الذِّكْرِ، له أذكارٌ يدمنُهَا ولا يغفلُ عنها، قال تلميذُهُ النّجيبُ، العلامةُ ابنُ القيِّم: «حضرتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية مرَّةً، صلَّى الصبحَ ثمَّ جَلَسَ يذْكُرُ اللهَ إلى قريب من منتصفِ النَّهارِ، ثُمَّ التفتَ إليَّ، وقالَ: هذه غدوتي، ولو لم أتَغَدَّ الغداءَ سقطت قُوَّتي، أو كلامًا قريبًا من هذا، وقال لي مَرَّةً: لا أتركُ الذِّكْرَ إلا بنِيَّةِ إجمامِ نفسي وإراحتِهَا، لأستعدَّ بتلك الراحةِ لِذِكْرٍ آخرَ، أو كلامًا قريبًا، هذا معناه»[1].

وكان شيخُ الإسلام رحمه الله يقولُ: «ربَّما طَالعْتُ على الآيةِ الواحدةِ مائةَ تفسير، ثمَّ أسألُ اللهَ الفهمَ، وأقولُ: يا مُعَلِّمَ آدمَ وإبراهيمَ علِّمني، وكنتُ أذهبُ إلى المساجدِ المهجورةِ ونحوها، وأمَرِّغُ وجهي في الترابِ، وأسألُ اللهَ تعالى، وأقولُ: يا مُعَلِّمَ إبراهيم علِّمني»[2].

وظلَّ أمرُ الشيخ في زيادةٍ حتَّى أثنى عليه شيوخُ عصرِهِ، وسلَّمَ الجميعُ بعلوِّ كعبِهِ، قال ابنُ العمادِ: «قال ابنُ الزَّمْلَكَانيِّ: وكان إذا سُئل – أي شيخُ الإسلام ابن تيمية – عن فَنٍّ من العلمِ ظنَّ الرّائي والسّامع أنَّه لا يعرفُ غيرَ ذلك الفنّ، وحَكَمَ أن أحدًا لا يعرفُهُ مثله، وكان الفقهاء من

(١) الوابل الصَّيِّب. ص٣٩.

(٢) مقدمة تفسير سورة الإخلاص. ص٦.

سَائِر[1] الطوائِف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياءَ، ولا يُعرَفُ أنَّه ناظَرَ أحدًا فانقطعَ معه، ولا تكلَّم في علمٍ من العلومِ سواء كان من علومِ الشَّرْعِ أو غيرِهَا إلا فاق فيه أهلَه، واجتمعت فيه شروطُ الاجتهاد على وجْهِهَا.

وقالَ الذَّهبيُّ: هو أكبرُ من أن يُنبَّهَ على سيرتِهِ مثلي، فلو حَلَفْتُ بين الرُّكْنِ والمقامِ، لحلفتُ أني ما رأيت بعينيَّ مثله، وأنَّه ما رأى مثلَ نفسِهِ.

وقال الشيخُ عمادُ الدِّين الواسطي بعد ثناءٍ طويلٍ جميلٍ على الشيخ ما لفظُهُ: «فوالله، ثمَّ والله، ثمَّ والله، لم يُرَ تحت أديمِ السَّماءِ[2] مثل شيخكم ابن تيمية؛ علمًا وعملًا وحالًا وخُلُقًا واتباعًا وكرمًا وقيامًا في حقِّ الله عند انتهاكِ حرماتِهِ، وأصدقُ النَّاسِ عقدًا، وأصحُّهم علمًا وعزمًا، وأنفذُهُم وأعلاهُم في انتصار الحقِّ وقيامِهِ هِمَّةً، وأسخاهم كفًّا وأكملهُمْ اتباعًا لنبيِّه محمدٍ ﷺ، ما رأينا في عصرنا هذا مَنْ تُستجلى النبوةُ المحمديةُ وسُنَنُها من أقوالِهِ وأفعالِهِ إلا هذا الرجل، يشهدُ القلبُ الصحيحُ أنَّ هذا هو الاتباعُ حقيقةً»[3].

وقالَ الشيخُ الإمامُ ابنُ دقيقِ العيدِ وقد سُئلَ عن ابن تيمية بعد اجتماعِهِ بِهِ كيف رأيتَهُ؟ فقال: «رأيتُ رجلاً سائرُ العلوم بين عينيهِ يأخذُ ما شاءَ منها ويتركُ ما شاءَ»[4].

---

(١) قال الحريريُّ: «من أوهامهم – أي: الخوَاص – الفاضحة، وأغلاطهم الواضحة، أنهم يقولون: قَدِمَ سائرُ الحاجِّ، واستُوفي سائر الخَراجِ، فيستعملون «سائرًا» بمعنى الجميع، وهو في كلام العرب، بمعنى «الباقي»، ومنه قيل لما في الإناءِ: سِؤْرٌ. انظر [دُرَّةُ الغَوَّاص. ص٤].

(٢) يقصدُ: في عصرِهِ، ولعلَّ صحة العبارة: لم أرَ تحت أديم السَّماءِ.

(٣) التذكرة والاعتبار. للشيخ عماد الدين الواسطي المعروف بابن شيخ الحزَّامين. ص٤٤.

(٤) شذرات الذهب. جـ ٦ ص٨٢.

وقد كان لمظهر الشيخ – فوق ما لمخبره – أثرٌ كبيرٌ في كلِّ مَنْ حَدَّثَه أو ألقى سمعَه إليه، وقد وصفه الذّهبيُّ – أحدُ معاصريه – في جسمِهِ ونفسِهِ فقال: كان أبيضَ، أسودَ الرأسَ واللحيةِ، شعرُهُ إلى شحمةِ أذنيه، كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَةً من الرجالِ، بعيدَ ما بَين المنكبين، جهوريَّ الصوتِ، فصيحًا، سريعَ القراءةِ تعتريه حِدَّةٌ، لكن يقهرها بالحِلمِ، ولم أرَ مثله في ابتهالاتِهِ واستعانتِهِ بالله مع كثرةِ تَوَجُّهِهِ.

«تلك صفاتٌ جسميَّةٌ ونفسيةٌ فوقَ ماله من مزايا عقليةٍ، تجعلُهُ ذا هَيْبَةٍ خاصَّةٍ، وقُوَّةِ تأثيرٍ، ونفوذٍ في قلب مَنْ يتحدَّثُ إليه، ومنْ يُلْقى سَمْعَهُ إليه، فلا يلبثُ أن يُلقيَ قلبَهُ ومشاعرهُ بين يديه»[1].

ولقد شاء الله تعالى أن يُوْلَدَ ابنُ تيمية والدولةُ الإسلاميةُ في حالةٍ من الضَّعْفِ والتمزُّقِ الشديدين، فقد زالت هَيْبَةُ الخلافةِ، وزالت وحدةُ الأمَّةِ، وتصارعَ الأمراءُ على الجاهِ والدُّنيا، وظهرَ التَّتارُ قبَّحهم الله فنهبوا البلادَ وقتلوا العِبَادَ، وخرجَ الفرنجُ خذلهم الله من الغرب إلى الشَّامِ، وقصدوا ديارَ مصرَ، وملكوا ثَغْرَ دمياطَ، وأشرفت ديارُ مصرَ والشَّام أن يملكوها، لولا لُطْفُ الله تعالى ونَصْرُهُ عليهم.

ولم يكن الشيخُ بعيدًا عن أحداث عصرِهِ، بل شاركَ في تلك الأحداثِ مشاركةَ العالِمِ العامِلِ المجاهِدِ، فامتشقَ حُسَامَهُ، وحاربَ التَّتَارَ بسيفِهِ، كما حاربهم بلسانِهِ، وقلمِهِ.

فمن ذلك: «أنَّه لَمَّا ظهرَ السلطانُ «غازان» على دمشقَ، جاءه مَلِكُ «الكرج»، وبَذَلَ له أموالًا كثيرةً جزيلةً، على أن يمكِّنَهُ من الْفَتْكِ بالمسلمين من أهل دمشقَ، فوصلَ الخبرُ إلى الشيخِ،

(١) ابن تيمية. حياته وعصره. ص٢٩.

فقامَ من فورِهِ، وشجَّعَ المسلمين، ورغَّبهم في الشجاعةِ، ووعَدَهم على قيامهم بالنَّصْرِ والظَّفَرِ والأمنِ، وزوال الخوفِ، فانتُدِبَ منهم رجالٌ من وجوهِهم وكبرائِهم وذوي أحلامِهم، فخرجوا معه إلى مجلس السلطانِ «غازانِ»، فلمَّا رأى الشيخَ أوقعَ الله له في قلبِهِ هَيْبَةً عظيمةً، حتَّى أدناه منه وأجلسَهُ، وأخذَ الشيخُ في الكلامِ معه في عكسِ رأيه من تسليطِ المخذولِ ملكِ «الكرْجِ» على المسلمين، وأخبره بحرمةِ دماءِ المسلمين، وذكّره ووعظَهُ، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقِنَتْ بسببِهِ دماءُ المسلمين، وحُميت ذراريهم، وصِين حريمُهُم.

قال الشيخُ كمال الدّين بن الأنجا: كان الشيخُ ابن تيمية يقولُ: **لن يخافَ الرَّجُلُ غيرَ الله إلا لمرضٍ في قلبِهِ، فإنَّ رجلًا شكى إلى أحمد بنِ حنبلٍ خوفَه من بعضِ الوُلاةِ، فقال: لو صحَّحت لم تخفْ أحداً؛ أي: خوفُك من أجْل زوال الصحَّةِ من قلبِك.**

وقالَ القاضي أبو العباس: إنَّهم لمَّا حضروا مجلسَ «غازان» قُدِّمَ لهم طعامٌ فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل: لِمَ لَمْ تأكل فقال: كيف آكلُ من طعامِك وكلُّه ممَّا نهبتم من أغنامِ النَّاسِ، طبختموه بما قطعتم من أشجارِ النَّاسِ؟ ثمَّ إنَّ «غازان» طَلَبَ منه الدُّعاءَ، فقالَ في دعائِهِ: اللَّهُمَّ، إن كنتَ تعلمُ أنَّه إنَّما قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا وجاهدَ في سبيلكَ فأيِّده وانصره، وإن كان للمُلْكِ والدنيا والتَّكاثُرِ فَافْعَلْ به واصْنَعْ، فكان يدعو عليه و«غازانُ» يؤمِّنُ على دعائِهِ، ونحن نجمعُ ثيابَنَا خوفًا أن يُقتلَ فيطرطِسَ بدمِهِ»[1].

ومن ذلك: أنَّه في سنة ٧٠٠هـ، اشتدَّ الخطرُ على الشَّامِ من التَّتَار ذلك العدوِّ الرَّهِيبِ، فأصْبَحَ النَّاسُ بين هاربٍ، أوْ لا يجدُ بدًا من الاستلام.

---

(١) غاية الأماني: ج٢ ص١٧٦.

وطلبَ نائبُ السُّلطانِ والأمراءُ إلى الشيخ أن يركبَ على البريدِ إلى مصرَ يستحِثُّ السلطانَ أن يجيءَ بالجيش لإنقاذِ الشَّام، وفي القاهرةِ قالَ الشيخُ للسلطانِ: «إن كنتم أعرضتم عن الشَّامِ وحمايتِهِ، أقمنا له سلطانًا يحوطُهُ ويحميه ويستغلُّهُ في زمنِ الأمنِ، ثمَّ قال: لو قُدِّرَ أنَّكم لستم حكّامَ الشَّامِ ولا ملوكَهُ، واستنصركم أهلُهُ، وجَبَ عليكم النَّصرُ، فكيف وأنتم حكَّامُهُ وسلاطينُهُ، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم؟؟ وقوَّى جأشَهم، وضمِنَ لهم النَّصْرَ هذهِ الكَرَّة، فخرجوا إلى الشَّامِ، وكان الظَّفَرُ والنَّصْرُ»[1].

ومن ذلك: أنَّ الشيخَ لم يَكْتفِ بالتَّحريضِ والتَّعبئةِ والسِّعايةِ للحربِ ضدَّ التَّتارِ، بل قاتلَ الشيخُ بنفسِهِ فكان طَلِيْعَةً، وكان بَطلًا رحمه الله، فقد ألقى بنفسِهِ في الميدان، في رمضان سنة ٧٠٢هـ، في موقعةِ «شقحب» التي جَمَعَ فيها التَّتارُ جموعَهم، واستعدُّوا لها بكلِّ قواهم، والتقى الجمعان، واشتدَّ القِتالُ، ووقفَ الشيخُ وأخوه موقفَ الموتِ، وأبلى بلاءً حسنًا، واستمرَّ القتالُ طولَ اليومِ الرابعِ من رمضان، حتَّى إذا جاءَ العصرُ ظَهَرَ جُندُ مِصرَ والشَّامِ، وانحسَرَ جندُ التَّتارِ فلجئوا إلى اقتحامِ الجبالِ والتلالِ وجندُ السُّلطانِ النَّاصرِ، أو بالأحرى، جندُ ابن تيمية وراءَه يضربون أقفيتَهُم، ويرمونَهُم عن قوسٍ واحدةٍ، حتَّى انبلجَ الفجرُ، وقد انكشفت الغُمَّةُ، وزالَ خطرُ التَّتارِ من بعدها، وكانت ثانيَ مَرَّةٍ يُمنُّونَ فيها بالهزيمةِ، وآخرَ مرةٍ يُغيرُونَ[2].

ومن ذلك: خروجُهُ بعد الفوز على التَّتارِ إلى الجبلِ؛ لمحاربةِ طائفةٍ من الشِّيعَةِ مالأتِ التَّتار

(١) ابن تيمية. د. محمد يوسف موسى. ص٨٤.

(٢) انظر في وصف وقعة «شقحب» [البداية و النهاية (١٤/ ٢٦)]. وانظر أيضًا [ابن تيمية. د. محمد يوسف موسى] و [ابن تيمية لمحمد أبو زهرة].

مرتين، وهم طوائفُ تنتسبُ إلى الشِّيعَةِ الباطنيَّةِ، وقد مالأت هذه الطائفةُ التَّتارَ مرتين، وأسروا الأسرى وسَبَوْا النِّساءَ والذُّرِّيَّةَ من المسلمين، بل وباعوا النِّساءَ والذريَّة للصَّليبيين.

خرجَ الشيخُ إلى تلك الطائفةِ الرَّافضةِ، فأزال مجتمعَهَا في الجبلِ، وقَلَّمَ أظفَارَهَا، وانتصَرَ للحقِّ منها.

ومن ذلك: أنَّ الشَّيخَ قد اتَّجهَ إلى إزالةِ البِدَعِ والمنكراتِ، «ففي جُمادى الآخرةِ، سنة ٧٠٤هـ، راح الشَّيخُ تقيُّ الدِّين إلى مسجد التاريخِ، وأمَرَ أصحابَهُ، ومعهم حَجَّارون بقطعِ صَخْرَةٍ كانت بنهرِ قلوط، تُزارُ ويُنْذَرُ لها، فقطعها وأراحَ المسلمين منها ومن الشِّركِ بها، فانزاحَ عن المسلمين شُبْهَةٌ كان شَرُّهَا عظيمًا»[1].

*****

(١) البداية و النهاية. جـ١٤ ص٣٦.



أطراف من محنة الشيخ

قال الشوكانيُّ رحمه الله: «وقع للشيخِ مع أهلِ عصرِهِ قلاقلُ وزلازلُ، وامتُحِنَ مرَّةً بعد أخرى في حياتِهِ، وجَرَتْ فتنٌ عديدةٌ، والنَّاسُ قسمان في شأنِهِ: فبعضٌ منهم مُقصر به عن المقدار الذي يستحقُّه، بل يرميه بالعظائمِ، وبعضٌ آخرُ يبالغُ في وصفِهِ ويجاوزُ به الحدَّ، ويتعصَّبُ له كما يتعصَّبُ أهلُ القسمِ الأولِ عليه، **وهذه قاعدةٌ مطَّردَةٌ في كلِّ عالمٍ يَتَبَحرُ في المعارفِ العلميَّةِ، ويفوق أهلَ عصرِهِ، ويدينُ بالكتابِ والسُّنَّةِ، فإنَّه لا بُدَّ أن يستنكره المقصِّرون، ويقعَ له معهم محنةٌ بعد محنةٍ، ثمَّ يكون أمرُهُ الأعلى وقولُهُ الأَوْلى، ويصير له بتلك الزَّلازلِ لسانُ صِدْقٍ في الآخرين، ويكون لعلمِهِ حَظٌّ لا يكون لغيرِهِ وهكذا حالُ هذا الإمامِ، فإنَّه بعد موتِهِ عرفَ النَّاسُ مقدارَهُ، واتفقت الألسنُ بالثَّناء عليه إلا مَنْ لا يُعْتَدُّ به، وطارت مصنَّفاتُهُ، واشتهرت مقالاتُهُ**»[1].

وقد ابتُلي الشيخُ رحمه الله بحسدِ الحُسَّادِ فكان أشدَّ ابتلاءٍ ابتُلِيَ به في حياتِهِ قطُّ، والحسدُ داءٌ قديمٌ لا يسلمُ منه أحدٌ؛ لأنَّه لا ينفَكُّ أحدٌ من نعمةٍ أبدًا، وكلُّ ذي نعمةٍ محسودٌ، فإذا كان ذو النعمةِ بالغًا فيها بعطاء ربِّه المبالغَ - كشيخِ الإسلام رحمه الله - فكيف تظنُّ حَسدَ الحسَّادِ فيه، وقديمًا كان في النَّاسِ الحَسَدُ؟؟

ومن هؤلاء - كما يقولُ الشوكانيُّ رحمه الله: «هذا القاضي من المالكية الذي يُقالُ له ابنُ

(١) البدر الطالع. جـ١ ص٦٥.

مخلوف، فإنَّه من شياطينهم المتجرِّئين على سفْكِ دِمَاءِ المسلمين بمجرَّدِ أكاذيبَ وكلماتٍ ليس المرادُ بها ما يحملونها عليه، وناهيك بقوله – أي: قولِ ابن مخلوف – إنَّ هذا الإمام – أي: شيخُ الإسلام – قد استحقَّ القتلَ، وثبتَ لديه كفرُهُ. ولا يساوي – أي: ابن مخلوف – شعرةً من شعراتِهِ – أي: شيخُ الإسلام – بل لا يصلحُ أن يكونَ شسعًا لنعلِهِ وما زال هذا القاضي الشَّيطان يتطلَّب الفرصَ التي يتوصَّلُ بها إلى إراقةِ دمِ هذا الإمام وحَجَبَهُ الله عنه، وحَالَ بينه وبينه، والحمدُ لله رب العالمين»[1].

على أنَّ الحسدَ لم يكن وحده الدَّافعَ لصراعِ المصارعين مع شيخ الإسلامِ رحمه الله، فقد كانت في الشيخِ رحمه الله حِدَّةٌ تعتريه في البحثِ، وغَضَبٌ، وصَدْمَةٌ للخصوم تزرعُ له عداوةً في النُّفوسِ، ولولا ذلك لكان كلمةَ إجماعٍ، فإنَّ كبارَهم خاضعون لعلومِهِ، معترفون بأنَّه بحرٌ لا ساحلَ له، وكنزٌ ليس له نظيرٌ، كما قال الذهبيُّ رحمه الله.

ودليلُ ذلك: أنَّه اجتمع به أبو حَيَّان في القاهرةِ سنة ٧٠٠هـ فقال أبو حَيَّان: ما رأت عَينَاي مثلَ هذا الرجلِ، ومدَحه بأبياتٍ ذكر أنَّه نَظَمَهَا بديهةً.

«ثمَّ دار بينهما كلامٌ فجرى ذِكْرُ سيبويه، فأغلَظَ ابن تيمية القولَ على سيبويه، فَنَافَرَهُ أبو حيَّان وقَطَعَهُ، وصَيَّرَ ذلك ذنبًا لا يُغفر. وسُئِل عن السببِ فقالَ: ناظرتُهُ في شيءٍ من العربيةِ فذكرتُ له كلامَ سيبويه، فقال: ما كان سيبويه نَبِيَّ النَّحْوِ ولا كان معصومًا، بل أخطأ في «الكتاب»[2] في ثمانين موضعاً، ما تفهمها أنت.

---

(١) البدر الطالع. جـ١ ص٦٧.

(٢) ذكر ابن كثير في «تاريخه» : «القرآن» بدل «الكتاب» ويمكن أن يكون المراد «بالكتاب» القرآن ولولا أن كتاب سيبويه

فكان ذلك سببَ مقاطعتِهِ إيَّاه، وذكره في تفسيرِهِ «البحر» بكلِّ سوءٍ، وكذلك في مختصرِه «النهر»[1].

وكان أهلُ «حَمَاة» قد وجَّهوا للشيخ سؤالاً سنة ٦٩٨هـ فأجابهم بما عُرِفَ بالفتوى الحمويَّة الكبرى، التزمَ فيها قانونَ السَّلَفِ في الأسماءِ والصفاتِ والبُعْدِ عن التأويلِ والتعطيلِ، وكان الحسدُ قد استقرَّ في قلوب كثير من الفقهاءِ، فألَّبوا عليه بعضَ الولاةِ، ولكنَّ التَّتارَ كانوا مستمرين في زحفِهِم ففرَّ الولاةُ والفقهاءُ، وصَمَدَ لها الشيخُ رحمه الله.

فلمَّا مَنَّ الله بالنَّصرِ على التَّتارِ، واستقرَّت أمورُ العبادِ، وعاد الشيخُ إلى الإفادةِ والتصنيفِ، تحرَّكَ الحسدُ من جديدٍ في قلوب الحاقدين لعلوِّ كعب الشيخِ، وارتفاع مقامِهِ عند العامَّةِ والوُلاةِ على السَّوَاءِ.

وكانت سنة ٧٠٥هـ من السَّنواتِ الشَّديدة في مِحَنِهَا على الشيخ رحمه الله، فقد عُقِدَتْ له عِدَّةُ مناظراتٍ في «الفتوى الحمويَّة»، وفي «العقيدة الواسطية»، ونصره الله عزَّ وجلَّ، وأظهره على خصومه ومعارضيه.

ووقعت في تلك السَّنَةِ نفسِهَا مخاصمةٌ بسببِ الطائفةِ الأحمديَّة، الرفاعيةِ، وكانوا يَلْبَسُونَ أطواقَ الحديدِ في أعناقِهِم، ويَدَّهِنُونَ بدُهْنٍ خاصٍّ، ثمَّ يدخلون النَّارَ فلا يحترقون، يُمَخْرِقُونَ بذلك على العامَّةِ من أهلِ الإسلامِ، فاشتدَّ نكيرُ الشيخ عليهم، حتَّى شَكُوهُ إلى نائبِ السلطنةِ، يطلبون أن يكفَّ الشيخُ عنهم وأن يتركهم وحالهم، فقالَ الشيخُ: **هذا لا يُمكنُ، ولا بُدَّ لكلِّ أحدٍ**

= موسوم بـ«الكتاب».

(١) البدر الطالع جـ١ ص٧٠.

أن يدخل تحت الكتابِ والسُنَّة قولاً وفعلاً، ومَنْ خَرجَ عنهما وَجَب الإنكارُ عليه، ومَنْ أرادَ منهم أن يدخلَ النَّارَ، فليدخل أولاً الحَمّامَ ويغسلَ جَسَدَهُ جيدًا، ثمَّ يدخل إلى النّار بعد ذلك إن كان صادقًا، ولو فُرِضَ أنَّ أحدًا من أهل البِدَع دخلَ النَّارَ بعد أن يغتسلَ، فإنَّ ذلك لا يدلُّ على صلاحِهِ، وعلى كرامتِهِ، بل حالُه من أحوالِ الدَّجاجِلَة المخالفة للشريعةِ إذا كان صاحبُهَا على السُّنَّةِ، فما الظَّنُّ بخلافِ ذلك؟؟

وانتهى الحالُ على أن يخلعوا أطواقَ الحديدِ من رقابِهِم، وأنَّ من خَرَجَ عن الكتابَ والسُّنَّة ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

ثمَّ وَرَدَ في السَّنةِ نفسهَا كتابٌ من السلطانِ بحَمْلِ الشيخ إلى القاهرة، فتوجَّه إليها على البريدِ، وخرجت جموعُ المسلمين باكيةً حزينةً لودَاعِهِ، وهو واثقٌ يرجو ويأملُ.

فلمَّا وصلَ إلى القاهرةِ عُقِدَ له مجلسٌ في القلعةِ، اجتمع فيه القادةُ وكبارُ رجالِ الدولةِ والقضاةُ والفقهاءُ، فلم يمكّنوه من الكلامِ، وتولَّى الادعاءَ عليه زينُ الدين بن مخلوف قاضي المالكيَة، فأخذ الشيخُ في الكلام فحمدَ الله وأثنى عليه، فقيلَ له: أجِبْ ولا تخطبْ، فَعَلِمَ أنَّها المحاكمةُ، لا المجادلة، فقال: من الحاكمُ فيَّ؟ فقيل له القاضي المالكيُّ، فقال له الشيخُ: كيف تحكم فيَّ وأنت خَصْمي؟! وآل أمرُ الشيخ إلى الحبسِ في برجٍ أيامًا نُقِلَ بعدها ليلةَ عيد الفطرِ إلى السجنَ المعروفِ بالجُبِّ، وحُبِسَ معه أخواه شرفُ الدين وزينُ الدين.

ولَبِثَ في السّجنَ نحوَ ثمانيةَ عشرَ شهرًا، حتَّى إذا كان شهر ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ حَضَرَ حسامُ الدينِ مهنا بن عيسى أميرُ العربِ إلى مصر، ودخلَ السجنَ وأخرجَ الشيخَ بنفسِهِ بعد أن استأذنَ في ذلك.

وخرجَ الشيخُ فأقامَ بالقاهرةِ يعلِّمُ الخيرَ، وينشرُ العلمَ، ويجتمعُ عليه النَّاسُ، حتَّى تقدَّمَ الصُّوفيةُ بشكايةٍ ضدَّه إلى القاضي، وذكروا أنّه يتناولُ ابن عربيٍّ وغيرَهُ من أعلامِ التصوُّفِ في

انكلامِ، وهؤلاء عند الصّوفية حريمٌ مقدَّسٌ لا يُمَسُّ، فخُيِّرَ الشيخُ بين أشياء: أن يُقيمَ بدمشقَ، أو يُقيمَ بالإسكندريةِ بشروطٍ، أو يُحبَسَ، فكان أن اختارَ الحبسَ مُؤْثِرًا له على قبولِ تلك الشروطِ، ودخلَ السّجنَ في العامِ الذي خرجَ فيه.

ورَغِبَ أصحابُ الشيخ إليه أن يجيبَ في السَّفَرِ إلى دمشقَ ملتزماً ما شَرَطُوه عليه، فأجابَ وركبَ متوجِّهًا إليها، فأبى خُصُومُهُ إلا أن يكون في قبضتهم وتحت أعينهم، فصدَرَ الأمرُ بردِّه إلى القاهرةِ فَرُدَّ في الغَدِ إليها، وأُرْسِلَ إلى حَبْسِ القضاةِ، وأُذِنَ بأن يكونَ عنده مَنْ يخدمُهُ.

وكان السّلطانُ الناصرُ بن قلاوون عارفًا قَدْرَ الشيخ مُحبًا له، إلا أنَّه في تلك الفترةِ كان قد عَزَلَ نفسَهُ، وتولَّى السلطنةَ الملكُ المظفرُ بيبرسُ الجاشنكيرُ، وكان تلميذًا لنصرِ المنبجيِّ الصوفيِّ الذي يَصْدُرُ عن شِرْبِ ابنِ عربيٍّ في آرائِهِ وأقوالِهِ[1]، فأصبحَ شيخُ الإسلامِ عدوًّا سياسيًا - على نحوٍ ما - إذ يُنْظَرُ إليه على أنَّه من أنصارِ الناصر بن قلاوون، ويقولُ في أمورِ الاعتقاد بغير ما يقولُ به السلطانُ بيبرس وشيخُه المنبجيُّ الصوفيُّ.

وتَقَرَّرَ نفيُ الشيخِ إلى الإسكندرية، فسافرَ إليها الشيخُ على نِيَّةِ الرِّبَاطِ، وكان سَفرُهُ إلى الإسكندرية في الليلة الأخيرةِ من شهرِ صفر، سنة ٧٠٩هـ، ومَكَثَ بها نحو ثمانيةِ أشهرٍ، «مُقِيمًا ببرجٍ مليحٍ نظيفٍ له شُبَّاكانِ، أحدُهما إلى جهةِ البحرِ، يدخلُ إليه مَنْ شاءَ، ويترَدَّدُ عليه الأكابرُ

---

(١) بيبرسُ الجاشنكيرُ هو السُّلطانُ الملكُ المظفر ركنُ الدين بن عبد الله المنصوري الجاشنكير من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية. صار سلطانًا على مصر سنة ٧٠٨هـ بعد أن خلعَ السلطانُ الناصرُ نفسَه، وهو غير بيبرس البندقداري الذي خلَفَ قطز وتوفي سنة ٦٧٦هـ، ومعنى الجاشنكير: الذي يتصدَّى لذوقِ المأكولِ والمشروبِ قبل السلطانِ أو الأمير خوفًا من أن يُدَسَّ عليه فيه سمٌّ ونحوه.

والفقهاءُ والأعيانُ، يبحثون معه ويتعلَّمون منه»[1].

وكان الشَيخُ إذا دَخَلَ حَبْساً، «وجَدَ المحابيسَ مشغولين بأنواعٍ من اللَّعِبِ، يَتَلهَّونَ بها عمَّا هم فيه؛ كالشِّطْرَنْجِ والنَّرْدِ، مع تضييعِ الصلواتِ، فأنكرَ الشيخُ عليهم وأمرهم بملازمةِ الصلاةِ، والتَّوَجُّهِ إلى الله تعالى بالأعمالِ الصَّالحةِ، والتسبيحِ، والاستغفار، والدعاءِ، وعلَّمهم من السُّنَّةِ ما يحتاجون إليه، ورغَّبهم في أعمالِ الخيرِ، وحضَّهم على ذلك، حتَّى صار الحبسُ بالاشتغالِ بالعلمِ والدينِ خيرًا من كثيرٍ من الزوايا والمدارسِ، وصارَ خلْقٌ من المحابيسِ إذا أُطْلِقُوا يختارون الإقامةَ عنده»[2].

ظلَّ الشيخُ بالإسكندرية حتَّى السّلطانُ النّاصرُ إلى عرشِ مصرَ، في يوم عيدِ الفطر سنة ٧٠٩هـ، فأمر بإطلاق سَرَاحِ الشيخِ وحمله إلى القاهرةِ مكرَّماً، فخرَجَ الشيخُ منها متوجِّهًا إلى القاهرةِ ومعه خلْقٌ من أهلِهَا يودِّعونه ويسألون الله أن يَرُدَّه إليهم، وكان وقتاً مشهوداً، ووصل إلى القاهرةِ في الثامنَ عشرَ من شوَّال. واجتمع بالسلطانِ في يوم الجمعةِ الرابعِ والعشرين منه.

ولقيَ السلطانُ الشيخَ أحسنَ لقاءٍ وأكرمه، وذلك أنّه لَمَّا عاد إلى مُلْكه جلس يومًا في أُبَّهَةِ ملكِهِ وعزِّ سلطانه، وأعيانُ الأمراء من المصريين والشاميين حضورٌ عنده، وقضاةُ مصر عن يمينِهِ، وقضاةُ الشامِ عن يسارِهِ، والنَّاسُ جلوسٌ خلفه، والسلطانُ على مقعدٍ مرتفعٍ، وبينما النَّاسُ كذلك جلوسٌ، نهضَ السلطانُ قائمًا، فقامَ النَّاسُ، ثمَّ مشى السلطانُ فنزلَ عن ذلك المقعدِ، ولا يُدرى ما به، وإذا بالشيخِ تقي الدين بن تيمية مقبلٌ من الباب، والسلطانُ قاصدٌ إليه، فنزل

---

(١) الكواكب الدرية. لمرعي بن يوسف الكرمي. ص١٣٥.

(٢) غاية الأماني. جـ ٢ ص١٩٦.

السلطان عن الإيوانِ والنَّاسُ قيامٌ، والقضاةُ والأمراءُ والدولةُ، فتَسَالَمَ هو السلطانُ، ثمَّ سارا إلى بستانٍ فجلسا فيه حيناً، ثمَّ أقبلا، ويدُ الشيخ في يد السلطان، وقَعَدَ السلطانُ على مقعدِهِ متربِّعًا، وشَرَعَ يُثني على الشيخِ عند الأمراءِ والقضاةِ وقال في الشيخِ من الثناءِ والمبالغة ما لا يقدرُ أحدٌ من أخصِّ أصحابه – أي: أصحاب الشيخ – أن يقولَهُ.

ثمَّ أنهى الوزيرُ إلى السّلطانِ أنَّ أهلَ الذِّمَّةِ قد بذلوا للدّولةِ في كلِّ سنةٍ سبعمائةِ ألفِ درهمٍ زيادةً على أن يعودوا إلى لبسِ العمائمِ البيضِ، فقالَ السلطانُ للقضاةِ، ومَنْ هناك: ما تقولون؟ فسكتَ النَّاسُ، فلمّا رآهم الشّيخُ تقيُّ الدين سكتوا، جثَا على ركبتيه، وشَرَعَ يَتكَلَّمُ مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظٍ، ويردُّ ما عرضه الوزيرُ رَدًّا عنيفًا، والسلطانُ يُسكته برفقٍ وتوقيرٍ، وبالغَ الشيخُ في الكلام، وقال ما لا يستطيعُ أحدٌ أن يقول مثله، ولا قريبًا منه، حتَّى رَجَعَ السلطانُ عن ذلك، وألزمهم بما هم عليه، واستمرُّوا على هذه الصِّفَةِ.

لَّما عادَ السلطانُ الناصِرُ إلى الحكمِ، وهربَ بيبرسُ الجاشنكيرُ، خافَ الذين سَعَوا من قبلُ في إيذاءِ الشيخ أن تقعَ عليهم العقوبةُ أو يُقْتَصَّ منهم، جزاءَ ما قدَّموا من إسَاءَةٍ، وكِفَاءَ ما أسلفوا من طغيانٍ، ولكنَّ العفو عند المقدرةِ ممَّا تنطوي عليه نَفْسُ الشيخِ، بل هو أوَّلُ ما يُعْقَدُ عليه الخنصرُ من جميلِ صفاتِهِ، وحميدِ أخلاقِه.

وقد أخْبَرَ الشيخ أنَّ السلطانَ الناصرَ لَّما جلس معه في البستانِ، أخرجَ فتاوى لبعضِ الحاضرين في قتله، واستفتاه فِي قتلِ بعضهم، قالَ الشيخُ: ففهمتُ مقصودَه، وأنَّ عنده حنقاً شديداً عليهم بسبب خَلْعهم له، ومبايعة الملكِ المظفرِ ركن الدين بيبرس الجاشنكير، قال الشيخُ: فَشَرَعْتُ في مدحِهِم والثناءِ عليهم وشكرِهم، وأنَّ هؤلاء لو ذهبوا لن تجدَ في دولتِك مثلَهم، وأمَّا أنا فَهُمْ فِي حِلٍّ من حَقِّي ومن جهتي، وسكَّنْتُ ما عنده عليهم.

يقولُ القاضي ابن مخلوف المالكيُّ، أعدى أعداء الشيخ: ما رأينا أعفى من ابن تيمية، لم نُبْقِ

ممكنًا في السعي فيه، فلمّا قدر علينا عفا عنّا.

واستمر الشيخُ بالقاهرةِ: ينشرُ العلمَ، ويحاربُ البدعَ، حتّى توجَّه مع الجيشِ المصريِّ قاصدًا غزوَ التّتارِ، فلمّا وصلَ معهم إلى عسقلان توجَّه إلى البيت المقدسِ، ومنه إلى دمشقَ، وجعلَ طريقه على «عجلون»، ووصل دمشقَ أوّلَ يومٍ من ذي القعدة سنة ٧١٢هـ، وكان مجموعُ غَيْبَتِه عن دمشق: سبعَ سنين، وسبعَ جُمَعٍ.

وقد أثمرت الفترةُ التي قضاها الشيخُ بمصر - سواء وراءَ الأسوارِ أو خارجها - رسائل نافعةً، منها ما وجَّه الشيخُ إلى أمّه يعتذرُ فيها عن إقامتِهِ بمصر لأنّه يرى ذلك أمرًا ضروريًا لتعليم النّاسِ وإرشادِهم، ويُلاحظُ في تلك الرسالةِ رقةُ الشيخِ لأمّه وبرُّهُ بها، كما يُلاحَظُ نزولُ أسلوبِهِ وقُرْبُ معانيه حتّى يُتَابَعَ في كلِّ ذلك.

ومن تلك الرسائل أيضًا رسالةٌ إلى إخوانِهِ في دمشقَ ينصحُ فيها ويُقرِّرُ العفوِ والصَّفْحَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ وآذاه[1].

عادَ الشيخُ إلى الشَّامِ، فعادَ إلى نشْرِ العلمِ، وتصنيفِ الكُتُبِ، والإفتاءِ كلامًا وكتابةً، يدورُ مع الكتابِ والسُّنَّةِ حيثُ دارا، فتارةً يوافق الأمة الأربعةَ في فتواهم، وتارةً يخالفهم أو يخالفُ المشهورَ من مذاهبِهِم، في كل ذلك يتَّبعُ الكتابَ والسُّنَّةَ، وأقوالَ الصَّحَابةِ والسَّلَفِ الصَّالحِ رضي الله تعالى عنهم.

وأفتى الشَّيخُ رحمه الله في مسائل كثيرةٍ من مسائل الفقهِ على حسبِ ما أدّى إليه اجتهادُهُ، فكانَ أن أفتى في الحَلِفِ بالطلاقِ بعدمِ الإلزامِ، وأنّه لا يقع به طلاقٌ، وفَرَّقَ بين الطلاقِ المعلّق وبينه،

(١) جمعت تلك الرسائل تحت اسم «رسائل من السجن»، جمعها محمد العبدة، ونشرتها «دار طيبة» بالرياض.

وخالفَ بذلك ما عليه الأئمةُ الأربعة أصحابُ المذاهب[1]. واستنكر الفقهاءُ من أتباعِ المذاهبِ فتوى الشيخِ، وجاهروا باستنكارهم، وكان ذلك في سنة ٧١٨هـ وأشارَ قاضي قضاةِ الشام على الشيخ بالكَفِّ عن الإفتاءِ في هذه المسألةِ، مسألةِ الحلِفِ بالطلاقِ فقبِلَ رحمه الله ووردت إشارةٌ من السُّلطانِ بمنعِ الشيخِ منَ الإفتاءِ بهذهِ المسألةِ ونُودِيَ بذلك في البلد.

ولكنَّ الشيخَ امتنع قليلاً، ثم عاد إلى الإفتاءِ حتَّى لا يقعَ في إثم كتمِ العلمِ، وعلمَ السلطانُ أنَّ الشيخَ لم يمتثل لأمرِهِ، فأكَّدَ المنعَ مرَّةً أخرى في التاسعَ عشر من رمضان ٧١٨هـ ولكنَّ الشيخَ استمرَّ يُفتي بما أدَّاه إليه اجتهادُهُ غيرَ مُلتفتٍ إلى شيء.

وانعقدَ مجلسٌ بدارِ الحكمِ، بحضرة نائب السلطنةِ، حَضَرَهُ القضاةُ والفقهاءُ والمُفْتُونَ من المذاهبِ الأربعةِ، وعاتبوا الشيخَ دون جدالِهِ، وتكرَّرَ العتابُ والرجاءُ، ولم يُفِدْ كلُّ ذلك شيئًا، فتقرَّرَ حَبْسُهُ بأمر نائب السلطنةِ، واستمرَّ محبوسًا خمسة أشهرٍ وثمانيةَ عَشَرَ يومًا، تبدأ من اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ٧٢٠ هـ، وأفرِجَ عنه بأمرِ السلطان في اليومِ العاشرِ من محرم سنة ٧٢١هـ.

وعادَ الشيخُ إلى دروسِهِ من جديدٍ، إلا أنّ الأعينَ المتربِّصَةَ به، والقلوبَ الناقمةَ عليه، كانت له بالمرصادِ، وكان الشيخُ قد أفتى قبل ذلك بسبع عشرة سنة، بمنعِ شَدِّ الرِّحَالِ إلى زيارةِ القبورِ، واجتمعِ المتآمرون عليه فبيَّتوا كيدَهم وأجمعوا أمرهم، وكاتبوا السّلطان بعدما حَرَّفُوا الكلمَ عن مواضِعِهِ، فجاءَ الأمرُ إلى دمشقَ في السّابع من شعبان سنة ٧٢٦ هـ، بحبسِ الشيخ في القلعةِ، قلعة دمشق.

---

(١) ذكر الشيخ في هذه المسألة ثلاثة أقوال للعلماء، انظرها في [مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣/ ١٩٥ – ١٩٦)].

وأُخْلِيَتْ في القلعةِ قاعةٌ للشّيخ، وأقامَ معه أخوه زينُ الدّين يخدمه بأمر السّلطانِ، واعتُقِلَ تلاميذُهُ وأولياؤُهُ، وعُزِّرَ بعضُهم بإركابهم على الدَّوابِّ، والمناداةِ عليهم، ثمَّ أُطلقوا ما عادا تلميذه النجيب ابن القيِّم رحمه الله.

وفَرِحَ الشيخُ بالحبسِ هذه المرَّة، وأخذَ يُطالِعُ في سِجْنِهِ ويُصَنِّفُ التصانيفَ، ويُرسِلُها خارجَ سجنِهِ، حتَّى وَرَدَ مرسومُ السلطان بإخراج ما عنده من كُتبٍ وأوراقٍ ومحابرَ وأقلامٍ، ومُنِعَ منعًا باتًا من المطالعةِ، وكان ذلك في اليومِ التاسعِ من جُمادى الآخرةِ سنة ٧٢٨هـ.

وثَقُلَ ذلك على الشيخ رحمه الله، فكان يكتبُ بالفحمِ، أحيانًا، على ما تيسر له من ورقٍ، ويحمد الله على ما مَنَّ به عليه، ويقولُ: **المحبوسُ من حُبِس قلبُهُ عن ربِّه، والمأسور مَنْ أَسَرَهُ هواه.**

ويقولُ: **ما يصنعُ أعدائي بي؟؟ أنا جنَّتي وبستاني في صدري، أينما رُحْتُ فهي معي، أنا حَبْسي خَلْوَةٌ، وقتلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سياحةٌ.**

ولم يَطُل الأمرُ بالشيخِ، فقد مَرِضَ في محبسِهِ، وكانت مُدَّةُ مرضِهِ بضعةً وعشرين يومًا، واستأذن الوزيرُ شمسُ الدينِ في الدخولِ عليه لعيادتِهِ، فَأَذِنَ له الشيخُ في ذلك، فلمَّا جلسَ عنده أخَذَ يعتذرُ له عن نفسِهِ، ويلتمسُ منه أن يحلَّه ممَّا كان منه، فأجابه الشيخُ أنَّه قد أحلَّه وجميعَ مَنْ عاداه ولا يعلم أنَّه على الحقِّ، وأنَّه قد أحلَّ الملكَ النّاصرَ مّما كان منه، لكونِهِ فَعَلَ ذلك مُقَلِّدًا غيره، معذورًا، ولم يفعله لحظِّ نفسِهِ، وقال: **قد أَحْلَلْتُ كلَّ أحدٍ مّما بيني وبينه ألا مَنْ كان عدوًا لله ورسوله ﷺ.**

ولقد كانت القوة المعاديةُ التي صَادَمَت الشيخَ وصَدَمَتْهُ كثيرةً، أهمُّها من الخارجِ التتارُ والصليبيون، ومن الداخلِ الجهميةُ والباطنيةُ والأحمديةُ والرفاعيةُ وغيرهم من الصّوفيةِ، بل ومع

هؤلاء جميعًا نصارى الداخل[1].

وفي وَصْفِ الشيخ رحمه الله لمجلسٍ من المجالسِ التي عُقِدَتْ له ما يدلُّ على أن القوى المعادية، كانت تحرِّكُ ضدَّه السلطانَ والسُّلْطَاتِ جميعًا، حتَّى لقد وصلَ الأمر إلى حَدِّ وَضْعِ الكتب ونسبتِهَا إليه، وهي زورٌ وبهتانٌ، قال رحمه الله: «قد سُئلتُ غيرَ مرَّةٍ أن أكتبَ ما حضرني ذكره، مما جرى في المجالس الثّلاثة المعقودةِ للمناظرةِ في أمر الاعتقادِ بمقتضى ما وَرَدَ به كتابُ السلطانِ من الديار المصريةِ إلى نائبِهِ أميرِ البلادِ، لَمَّا سعى إليه قومٌ من الجهميةِ، الاتحاديةِ، والرافضةِ، وغيرهم من ذوي الأحقاد.

فأمَرَ الأميرُ بجمعِ القضاةِ الأربعةِ، قضاة المذاهب الأربعة وغيرهم من نوَّابهم، والمفتين والمشائخ مّمن له حرمةٌ وبه اعتدادٌ، وهم لا يدرون ما قُصد بجمعهم في هذا الميعادِ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمسٍ وسبعمائة.

فقال لي: هذا المجلس عُقد لك، وقد وَرَدَ مرسومُ السلطانِ بأن أسألك عن اعتقادِك وعمَّا كتبتَ به إلى الديار المصرية تدعو بها النَّاس إلى الاعتقاد. وأظنُّه قال: وأن أجمعَ القضاةَ والفقهاءَ وتتباحثون في ذلك.

فقلتُ: أمَّا الاعتقادُ فلا يُؤخذ عني، ولا عمَّن هو أكبر منِّي، بل يُؤخذ عن الله ورسولِهِ ﷺ، وما أجمع عليه سَلَفُ الأمةِ، فما كان في القرآنِ وَجَبَ اعتقادُهُ، وكذلك ما ثبَتَ في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم.

---

(١) انظر سبب تأليف كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ»، وواقعة عساف النصراني في [البداية والنهاية (١٣/ ٣٥٥)].

وأمَّا الكُتُبُ فما كتبتُ إلى أحدٍ كتابًا ابتداءً أدعوه به إلى شيء من ذلك، ولكني كتبتُ أجوبةً أجبتُ بها مَنْ يسألني من أهل الديارِ المصريةِ وغيرهم. وكان قد بلغني أنّه زُوِّرَ عليَّ كتابٌ إلى الأميرِ ركنِ الدين الجاشنكير، يتضمَّنُ ذِكْرَ عقيدةٍ محرفةٍ، ولم أعلم بحقيقتِهِ ولكن علمتُ أنَّه مكذوبٌ»[1].

وقد ذكر البزارُ رحمه الله في «الأعلام العلية» أنَّ مناقشةً وقعت بين السلطانِ النّاصر وشيخِ الإسلامِ، وكان وراءها دسائسُ رسلِ التتارِ إلى السلطانِ، الذي قال للشيخِ: «**إنَّني أُخبرتُ أنَّك قد أطاعك النَّاس، وأنَّ في نفسِك أخْذَ الملكِ**».

وانطلقَ صوتُ الحقِّ من قلبِ الشيخِ، عاليَ النّبرةِ، رائعَ الصدقِ يُقرِّرُ: «**أنا أفعلُ ذلك؟! والله إنَّ ملكك، ومُلكَ المُغْلِ -أي التَّتار- لا يُساوي عندي فَلْسَيْنِ**»[2].

فلا يصحُّ لناظرٍ ينظرُ الآن في حياةِ الشيخِ رحمه الله أنْ يُغْفِلَ البحثَ في مكائِدِ هؤلاء المعادين للشيخ ولدعوة التوحيد التي اضطلعَ بها، وأفنى عمره كله في سبيل توطيدها.

ثمَّ تُوفِّي الشيخُ رحمه الله في ليلةِ الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة، وكان بعد إخراجِ كتبِهِ قد عَكَفَ على كتابِ الله عزَّ وجلّ، فكان يختمُ في كل عشرةِ أيامٍ ختمةً، وختم القرآن مدَّة إقامتِهِ بالقلعةِ: إحدى وثمانين ختمةً، انتهى في آخر ختمةٍ إلى آخر «اقتربت»: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وعَلِمَ النَّاسُ بموتِ الشيخِ، فاشتدَّ التأسُّفُ عليهِ، وكَثُرَ الحزنُ والبكاءُ، ودخل عليه أقاربُهُ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام جـ٣ ص١٦٠.

(٢) الأعلام العلية. للبزار. ص ٧٤.

وأصحابُهُ، وازدحم الخلقُ على بابِ القلعةِ وفي الطرقات، وامتلأ جامعُ دمشقَ، واقْتُصر على مَنْ يُغَسِّلُهُ ويُعين في غسلِهِ، فلمّا فرغوا من ذلك أُخْرِجَ «وصُلّي عليه أولاً بالقلعةِ، تقدَّمَ في الصلاةِ عليه أولاً الشيخُ محمدُ بن تمام، ثمَّ صلّى عليه بالجامع الأمويِّ عُقَيْبَ صلاة الظُّهْرِ، وقد تضاعفَ اجتماع النَّاسِ ، ثمَّ تزايدَ الجمعُ إلى أن ضاقَت الرِّحَابُ والأزِقَّةُ والأسواقُ بأهلِها ومَنْ فيها، ثمَّ حُمِلَ بعد أن صُلِّيَ عليه على الرءوسِ تارةً يتقدَّمُ وتارةً يتأخر، وتارة يقف حتَّى يمرَّ النَّاسُ، وخرج النَّاسُ من أبوابِ البلدِ جميعها من شدَّة الزحامِ فيها، وعَظُمَ الأمرُ بسوقِ الخيلِ وتضاعف الخلقُ وكَثُرَ النَّاسُ، ووضعت الجنازةُ هناك وتقدَّم للصلاةِ عليه هناك أخوه زينُ الدين عبد الرحمن، فلمّا قُضيت الصلاةُ حُمِلَ إلى مقبرةِ الصوفية فدُفن إلى جانبِ شرف الدين عبد الله رحمهما الله، وكان دفنُهُ قبل العصر بيسير، وذلك من كثرةِ من يأتي ويُصلِّي عليه من أهلِ البساتين وأهلِ الغوطةِ وأهل القرى وغيرهم، وأغلقَ النَّاس حوانيتَهم، ولم يتخلَّف عن الحضور إلا مَنْ هو عاجزٌ عن الحضورِ، مع الترحُّمِ والدّعاء له، وأنَّه لو قدر ما تخلَّف، وحضر نساءٌ كثيراتٌ بحيث حُزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللّاتي كنَّ على الأسْطُحِ وغيرها، الجميعُ يترحمن ويبكين عليه. ا.هـ»[1].

نعم، لم يبق في دمشقَ مَنْ يستطيع الحضورَ للصلاة عليه إلا حضرَ لذلك، حتَّى غُلِّقت الأسواقُ بدمشقَ وعُطِّلَت معائشُهَا يومئذٍ، وحصل للنَّاسِ بمصابِهِ أمرٌ شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وما أن خرجت جنازتُه حتَّى أكبَّ عليها النَّاسُ، وحصل البكاءُ والضجيجُ والتَّضَرُّعُ، واشتدَّ الزِّحَامُ من كلِّ جانبٍ، حتَّى خُشِيَ على النَّعْشِ أن يُحْطَمَ قبل وصولِهِ.

---

(١) البداية و النهاية للحافظ ابن كثير (١٤/ ١٤١).

روى الدَّارقطني بسندِه عن أحمد بن حنبل أنَّه قال: «**قولوا لأهل البدعِ: بيننا وبينكم الجنائز**»[1].

ولم يكن الشيخُ رحمه الله معصومًا، ولا يقولُ بذلك مسلمٌ، ولكنَّه رحمه الله كان «مُعَظِّمًا للشرائع ظاهرًا وباطنًا، لا يُؤتى من سوءِ فهمٍ، فإنَّ له الذكاءَ المفرطَ، ولا من قِلَّةِ علمٍ، فإنَّه بحرٌ زاخرٌ، ولا كان متلاعبًا بالدين ولا ينفردُ بمسائل بالتَّشَهي ولا يطلقُ لسانه بما اتفق، بل يحتجُّ بالقرآنِ والحديث والقياسِ، ويبرهنُ ويناظر أسوةً بمَنْ تقدَّمه من الأئمةِ، فله أجرٌ على خطئه وأجران على إصابتِه»[2].

ولعلَّ عالمًا من علماء المسلمين لم يَدُرْ حوله الخلافُ كما دارَ حول شيخ الإسلام ابنِ تيمية رحمه الله، غير أنِّي لمَّا نظرتُ فيمَنْ طَعَنَ فيهِ وحَمَلَ عليه – لا مَنْ نَاقَشَهُ بإنصافٍ، فصوَّبَهُ أو خَطَّأَهُ – وجدتُهُ لا يخرجُ عن واحدةٍ من اثنين، لا مَعْدى عن إحداهما:

إمَّا أن يكون مغرِضًا.

وإمَّا أن يكون بالشيخِ جاهلاً.

فأمَّا الطائفةُ الأولى: فأهلُ غَرَضٍ وحقدٍ، والغَرَضُ مَرَضٌ كما يقولون، وهؤلاء ينتسبون إلى مذاهب – حقةٍ أو باطلةٍ، يتعصبون لها تعصُّبًا مُظْلِمًا، ويحملون على مخالفيها حملاً أعمى، فمنهم من ينتسبُ إلى مذهبٍ فقهيٍّ مخالفٍ، لا يرى الصوابَ في غيره، فالشيخُ عنده على الباطل سلفًا، ومنهم من ينتسبُ إلى مذهبٍ اعتقاديٍّ باطلٍ، فهو يرى الشيخ من أهل الزَّيغِ، لا لشيء إلا لأنَّ

(١) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية. للشيخ مرعي ابن يوسف الكرمي. ص٦٦.

(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١/ ٦٥).

الشيخ خَالَفَ باطلَهُ، واتَّبَعَ الحَقَّ الذي هو أحقُّ أن يُتَّبَعَ.

وأمَّا الطائفةُ الثانيةُ: فقومٌ لا ينقصُهُم الإنصافُ، ولا يفترقون إلى العقلِ والفهمِ، ولكنَّهم سمعوا أباطيل تُروى عن الشيخ، ولم يسمعوا مَنْ يُبَدِّدُ بنورِ الحُجَّةِ ظلماتِها، أو نظروا في كتبٍ تطعنُ في الشيخِ ولم يتكلَّفوا مشقةَ العودةِ إلى مصادرِ النقولِ حتَّى يُحيطوا بخبيئةِ الأمرِ، ويعلموا كُنْهَهُ، والإنصاف بأنفسهم يقتضيهم أن ينظروا في كتب الشيخِ، حتى لا يتورَّطوا في الظلم وهو قبيحٌ لا يَجْمُلُ بهم، وقد قال الحافظُ ابن عساكرِ رحمه الله: «**لحومُ العلماءِ مَسْمُومةٌ، وهَتْكُ أستارِ مُنتَقِصِهِم معلومةٌ**». وقال: «**لحومُ العلماءِ سَمٌّ، مَنْ شمَّهَا مَرِضَ، ومَنْ ذَاقَهَا ماتَ**».

أسأل الله العظيم أن يغفرَ لي ولوالديَّ ولابنِ تيمية وللمسلمين أجمعين، وأن يجمعنا مع النبيِّ ﷺ في الجنَّة إنَّه على كل شيءٍ قديرٌ. والحمد الله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ تسليمًا كثيرًا. سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك، وآخر دعوانا أن الحمد الله ربِّ العالمين.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه

مصر – المنوفية – أشمون – سبك الأحد

في يوم الأحد: ٥ من صفر الخير ١٤١١هـ

٢٦ من أغسطس ١٩٩٠م

محتويات الكتاب

حول

حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله

دار الفرقان للنشر والتوزيع

